مخالطة ابناء جلدتهم المتنصرة الصينيين حرصاً على اخلاقهم وللتباين الواقع بين قواعد الدين المسيحي وافعال الجالية الى هناك من اهله واذا اردت ان تعرف ذلك فانظر الى الامر الامبراطوري الصادر مرة في جريدة باكين الرسمية بشأن الاوربيين وهو " ان فئتين من الاجانب تدّعيان اصلاح امور الصين احداهما تأمرنا بمحبة القريب كانفسنا والثانية تعلّمنا كيفية قتله من مسافة بعيدة بدون حرج علينا وتبيعنا بنادقها المتقنة لكيفية القتل "

هذا وقد زعم بعضهم ان منشأ فتنة البوكسر الاخيرة التي آلت الى الحرب الحاضرة هو من امعان المرسلين في بثّ دعوتهم وقد شوهد ان الذين اهتضموا ونُكبوا في هذه الفتنة اكثر من الجميع هم الصينيون المتنصرون والصحيح ان هذا هو من جملة اسباب الثورة وليس كلها. هذا ما عنّ لنا ذكره بشأن الاديان المختلفة في الصين على وجه الاختصار وقد ابقينا الكلام على الاسلام الى المرة الآتية

شكيب ارسلان

عمران دمشق

في خلافة بني العباس

انتقل الملك الى بني العباس سنة ١٣٢ هـ فلم يميزوا بغداد عن دمشق في شيء الاّ ان طبيعة الملك وقرب دار السلام من خراسان منبعث دولتهم ومنبثق دعوتهم دعياهم الى اختيارها على علاّتها عاصمة لسلطانهم على انهم كانوا يعدّون البلاد كلها لهم لا فرق بين دار ملكهم واصغر قرية منهُ . ولذا عرفت دمشق في ايامهم طعم العدل وذاقت حلاوة العمران حتى كان المسافر بينها وبين بغداد يقطع المسافة تحت ظلال الاشجار آمناً في سيرهِ

روى ابن عساكر ان ملوك بني العباس لم يزالوا يختارون الى دمشق طلباً للصحة وحب المنظر منهم المأمون فانهُ اقام بها واجرى اليها قناة من نهر مَنين في سفح جبلها الى معسكرهِ بدير مرّان وبنى القبّة التي في اعلا الجبل وصيّرها مرقباً يُوقد في اعلاها النار لكي ينظر الى ما في عسكرهِ فاذا جنّ عليهِ الليل كان ضوءها الى ثنيّة العُقاب[1] والى جبل الثلج

(١) قال ياقوت وهي ثنية مشرفة على غوطة دمشق يطأها القاصد من دمشق الى حمص قال احمد بن يحيى بن جابرة وغيرهُ من اهل السير سار خالد بن الوليد من العراق حتى اتى مرج راهط فاغار على غسان في يوم فصحهم ثم سار الى الثنية التي تعرف بثنية العقاب المطلة على غوطة دمشق فوقف عليها ساعة ناشرًا رايته وهي راية كانت لرسول الله صلى الله عليهِ وسلم فكانت تسمى العقاب علماً لها ويقال انها سميت ثنية العقاب لعقاب من الطير كان ساقطاً عليها بعشهِ وفراخهِ

اما هذه المناور فقد كانت تستعمل في بلادنا قديمًا اعلامًا بحركات الاعداء . جاء في كتاب التعريف انها تستعمل للاعلام بحركات التتار اذا قصدوا البلاد للدخول لحرب او لاغارة . ولما يرفع من هذه النيران او يدخن من هذا الدُّخان ادلة تعرف فيها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها تارةً في العدو وتارةً في غير ذلك . وقد أُرصد في كلّ منوَّر الدياديب (جمع ديدبان وهو الرقيب) والنظارة لرؤية ما وراءهم وايراء ما امامهم ولهم على ذلك رواتب مقرَّرة لا تزال دارَّة فمنذ اصلح الله بين الفئتين قلّ بذلك الاحتفال . والمناور المذكورة تكون تارة على رؤوس الجبال وتارة تكون في ابنية عالية ومواضعها تعرف بها اكثر السفَّارة وهي من اقصى ثغور الاسلام كالبيرة الى حضرة السلطان بقلعة الجبل حتى ان النجدد بها عشاءً كان يُعلم بها بُكْرَةً

ثم عدَّد مناور الطرق فقال ويرفع النار في القريتين فيرى بالعُطنة ويرفع فيها فيرى في ثنية العقاب ويرفع فيها فيرى بأذنة العروس ويرفع فيها لما حولها انذارًا للرعاية وضمًّا للاطراف ويرفع حول دمشق بالجبل المطلّ على برزة فيرى بالمانع ويرفع به فيرى بتل قرية الكتيبة . وختم بقوله اعلم ان من جميع ما ذكرناهُ مناور تشعب الى ما خرج عن جادّة الطريق الى البلاد الآخذة على جنب جنوبًا وشمالاً وشرقًا وغربًا اما هذه المناور الآن فرسوم قد عفت وجسوم اكل شعل النار ارواحها فانطفت

وبهذا ترى ان القبة القائمة انقاضها اليوم في قمة جبل قاسيون المشار اليها في كلام صاحب التعريف والمعروفة اليوم بقبة النصران لم تكن من بناء العباسيين فقبتهم كانت مكانها ثم خربت وتجدّد غيرها وما يقال عن قبة النصر واستخدامها منارة فيما مضى يصحّ ان يقال عن قبة السيار المسامتة لها من الشق الآخر من الجبل

اما القناة التي جُرَّ بها ماء قرية منين لمعسكر المأمون بدير مرّان وهو اليوم حدائق صُبَّار وآس فهي من اهم الامثلة في العمران على عهد هذه الدولة لان المسافة بين منين ودير مرّان لا تقلّ عن ثلاث ساعات يتخللها كثير من الوهاد والنجاد والشعاب والعقاب . وما من اثر يدلّ على القناة الاّ ما كان من بقايا مجرى نهر في سفح الجبل بادٍ للعيان على أن طواريّ الحدثان عفَّت القريب عهدهُ من الآثار فما بالك بما مضى عليهِ زهاء الف سنة والناس قد نسوا تاريخ اجدادهم وتخطيط بلادهم حتى لو قلنا لهم ان المأمون بنى مرصدًا فلكيًّا في جبل قاسيون لرصد الاجرام السماوية والاحداث الفلكية وان أُلوغ بك التتري بنى مرصدًا بدمشق ايضًا منذ ستة قرون لاستغربوا ذلك منا ولو جئناهم عليهِ بالشواهد التاريخية

قلت ان بني العباس وخصوصاً الخلفاء الأول منهم كانوا يجلّون قدر دمشق و يعرفون لها مركزها بين البلاد حتى ان الخليفة المتوكل عزم على المقام بها ونقل دواوين الملك اليها ولو لم يستوبئها و يستثقل ماءها على ما قيل لما رحل عنها . وكان خروج المتوكل من دمشق الى سُرَّ مَن رأى سنة ثلاث واربعين ومائتين . و يُظن ان السرَّ في عدولهِ عما قصد لهُ هو ما كان مستحكماً بين العراقيين والشاميين من الاحقاد القديمة التي من آثارها نسبة المعايب والمعايب للبلاد التي يسكنها كل من الفريقين ولا يبعد ان خروجهُ كان تسكيناً لثائرة الفتن الداخلية بينهُ وبين رعيتهِ وحاشيتهِ اذ لم يكن المتوكل ممن تمدح سيرتهُ وسريرتهُ . وفي خروجهِ من بغداد يقول المهلبي من ابيات

اظنُّ الشام يشمت بالعراق اذا عزم الامام على انطلاقِ .
فان تدعِ العراق وساكنيها فقد تُبلي المليحة بالطلاقِ .

ويؤخذ مما قالهُ المسعوديُّ ان المتوكل لما نزل بدمشق ابى ان ينزل المدينة لتكاثف هواء الغوطة عليها وما يرتفع من بخار مياهها فنزل قصر المأمون وذلك بين داريا ودمشق على ساعة من المدينة في اعالي الارض وهذا الموضع بدمشق يُشرف على المدينة واكثر الغوطة وكان يعرف بقصر المأمون الى سنة ٣٣٢ ويقول السيوطيُّ ان القصر بني للمتوكل وكيفما كان فان القصر اخفت عليهِ حادثات العصر واصبحنا ولا خَبر عنهُ ولا خُبر . وللبحتري من قصيدة يمدح المتوكل في دخولهِ الغيحاء ويصفها

امّا دمشق فقد ابدتْ محاسنها وقد وفى لك مُطريها بما وعدا
اذا اردتَ ملأتَ العين من بلدٍ مستحسن وزمانٍ يشبهُ البلدا
يُمسي السحاب على اجبالها فِرَقاً ويُصبح النَّبت في صحرائها بَددا
فلست تُبصر الاَّ واكفاً خضلاً ويانعاً خضرًا او طائرًا غردا
كأنما القيظ ولّى بعد جيئتهِ او الربيع دنا من بعدما بَعُدا

ولما ضعفت الدولة العباسية اصاب الغيحاء ما اصاب غيرها من الانحطاط لاسيما في اواسط حياتها ابان انتشر ملوك الطوائف واستبدوا بالاطراف واخذ الخلفاء لضعف عصبيتهم يستظهرون بالموالي والمصطنعين من الترك والفرس والديلم ففي خلافة الراضي سنة ٣٢٤ بطلت الدواوين والوزارة ولم يكن الوزير ينظر في شيء من الامور كما روى ابن الاثير انما كان ابن رائق وكاتبهُ ينظران فيها جميعاً وكذلك كلُّ من تولى امرة الامراء بعدهُ وصارت الاموال تحمل الى خزائنهم فيتصرّفون فيها كما يريدون و يطلقون للخليفة ما يريدون وبطلت بيوت الاموال

وتغلب اصحاب الاطراف وزالت عنهم الطاعة ولم يبقَ للخليفة غير بغداد واعمالها والحكم في جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم

واما باقي الاطراف فكانت البصرة في يد ابن رائق وخوزستان في يد البريدي وفارس في يد عماد الدولة بن بويه وبدوشمكير اخي مرداويج يتنازعان عليها والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان ومصر والشام في يد محمد بن طغج والمغرب وافريقية في يد ابي القاسم القائم بامر الله بن المهدي العلوي وهو الثاني منهم ويلقب بامير المؤمنين والاندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الاموي وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن احمد السامانى وطبرستان وجرجان في يد الديلم والبحرين واليمامة في يد ابي طاهر القرمطي

وفي خلال هذه المدة قويت شوكة القرامطة فاستولوا على الشام مرارًا واعملوا السيف في اهلها وملأوا ايديهم من الغنائم والنهب فقد ذكر المؤرخون ان القرامطة اخذوا دمشق فصالحهم اهلها على مال دفعوهُ اليهم ولكن بعد ان نهبوا وسفكوا وكذلك سنة سبع وخمسين وثلثمائة وفي رواية ايضاً سنة ٣٦٠ . وكذلك حدثت بها فتن الاسماعيلية وغيرهم من الخوارج

وبعد ان تسلط بنو طولون حكام مصر للدولة العباسية على دمشق ٧٢ سنة استولى عليها الفاطميون سنة ٣٥٨ والحقوها بمصر وبقيت سورية تابعة لهم ١٧٣ سنة حتى جاءت الدولة السلجوقية التركمانية وبسطت يدها على البلاد . وكانت الدولة الفاطمية دولة تلوّن في المشرب وتلاعب بالامة وكثرت الفتن في ايامها وخرجت الشام عن حكمها ثم عادت اليها ومع هذا فقد اجتهد الفاطميون في ترقية التجارة والصنائع والزراعة وبنوا كما قال سيديليو المساجد الفاخرة ومرصدًا لابن يونس مثل ما كان للفلكيين في المملكة العباسية وحسنوا ادارة الخراج وكيفية تحصيله حتى ساوى دخل المملكة السنوي دخل المملكة العباسية زمن الرشيد وفاقت مدارس القاهرة رونقًا على المدارس البغدادية بعد ذهاب ملك بني بويه الذين عُرفوا بخدمتهم للعلم وكان الحاكم بامر الله على فساد اخلاقهِ وسوء ادارتهِ يحترم العلماء ويشوقهم باحسانهِ الى احياء العلوم (فما كان ينفيهم ولا يطردهم)

ذكر ابن الاثير في حوادث سنة ٣٧٢ لما استولى بكجور على دمشق باسم الفاطميين ان هذا البلد كان قد خرّبهُ العرب واهل العيث والفساد وانتقل اهلهُ الى اعمال حمص فعمرت وكثر اهلها والغلات فيها ووقع الغلاء والقحط بدمشق فحمل بكجور الاقوات من حمص اليها وتردد الناس في حمل الغلات وحفظ الطرق وحماها لكنهُ ظلم وقتل وصلب واخذ المال

وسنة ٣٦٣ وما بعدها جرت فتنٌ في دمشق وقت رجوعها الى المعز فخربت المنازل وانقطعت

المواد وانسدت المسالك و بطل البيع والشراء وقطع الماء عن البلد فبطلت القنوات والحمامات ومات كثير من الفقراء على الطرقات من الجوع والبرد

وظل السلجوقيون بدمشق حتى سنة ٦٦١ ايام قرضهم التتار وكان ابتداء دولتهم سنة ٤٣٢ وانقراضها سنة ٦٨٧ . ولم اقف على تاريخ ينطبق بحال الفيحاء على عهد تلك الدولة التركية التي قامت الدولة العثمانية على انقاضها والعهد ان ملوكها كانوا على جانب من التدين والميل لراحة البلاد والسعي لسعادتها حتى صار يُضرب المثل بملوكهم الأول وقد حكموا آسيا الصغرى وارمينية وبلاد الكرج واتخذوا مدينة قونية عاصمة ملكهم

وجاء التتار دمشق مرارًا وعاملوها بما عاملوا به سائر البلاد على ما رُكِزَ في غرائزهم من القتل والنهب والسبي ففي سنة ٦٥٨ استولوا عليها وسائر الشام الى غزة عقيب استيلاء هولاكو سلطانهم على بغداد وقتل المستعصم سنة ٦٥٦ واستقرت شحائنهم بها بالامان ونهبوا جميع ما فيها وخربوا اسوارها حتى اخرجهم منها الملك الظاهر بيبرس البندقداري

ويؤخذ من كلام الذهبي وابن خلدون وغيرهما ان غازان من احفاد هولاكو التتري دخل دمشق سنة ٩٩٦ ثم ارتجع عنها بعد ان بذل له اهلها مالاً عظيماً وكذلك سنة ٧٠٢ جاء التتار بجموعهم الى بلاد المسلمين صحبة نائب غازان فانحاز الجند الشامي الى دمشق وتوجه الجند المصري نحو الشام واجتمعوا بمرج الصفر وتجاوز التتار دمشق ونزلوا "شقحب" وتراءى الجمعان ووقع القتال فانكسر التتار فولوا على ادبارهم يتبعهم المسلمون وافنوهم قتلا واسرًا وغرق في الفرات غالب من هرب من التتار

وسنة ٧٧٨ جاء جموع التتار فنزلوا بالمدرسة العادلية اكبر مدارس الشافعية بدمشق فأُحرقت ونُصب المنجنيق على القلعة بسطح جامع بني امية فاحرقوه فاعيد عمله وكان المغول يحرسونه . قال ابن خلدون وانتهكوا حرمة المسجد بكل محرّم من غير استثناء وهدم ما كان حول القلعة من المساكن والمدارس والابنية ودار السعادة وأُهين القضاة والخطباء وعطلت الجماعات والجمعة وفشى القتل والسبي وهدمت دار الحديث وكثير من المدارس ثم انجلوا عنها

واتفق ثقات المؤرخين ان دمشق شهدت اسعد ايامها على عهد الفاتحين العظيمين الملكين العادلين نور الدين محمود بن زنكي وصلاح الدين يوسف بن ايوب لانهما من رجال الافعال لا الاقوال شعارهما العدل بين البرية ودثارهما الحنان على الرعية وقد امتدّ العمران على عهدهما امتداد الشؤبوب وكثر العلماء والادباء في دولتيهما كثرة يتعذّر ان تحصل عليها امة في قرنين مع ان حكمهما لم يطل اكثر من ٣٩ سنة وكل مدة بني ايوب ورأسهم صلاح الدين لم تكن

سوى ثمانين سنة تعاقب فيها عشرة اشخاص منهم امرأة واحدة وآخرهم الملك الاشرف موسى

هذا والرجلان مشتغلان بدفع الصليبيين عن سورية التي كانت سواحلها كلها بايديهم في غضون ذلك ولا تسل عن مواطنها في الجلاد وايامها المشهورة في الاعداء فقد استهوت العالمين حتى اشترك في ترادها وتعدادها الكافة. ولئن جرت الفتوحات العظيمة على يد الملك الناصر صلاح الدين فان لنور الدين الفضل اذ هو المؤسس والفارس وصلاح الدين بنى وجني مع ان نور الدين تركيُّ الاصل والجنس وصلاح الدين كرديٌّ ولكن هي التربية والتعليم اذا حسنا يستوي في الغناء الاصفر والاحمر والابيض والاسود إلاَّ قليلاً . وما حصر الفضل قط في عربيّ ولا تركيّ ولا جركسيّ ولا كرديّ ولا فارسيّ بل ولا ارمنيّ ولا روميّ ولا انكليزيّ ولا المانيّ ولا افرنسيّ

وكان الصليبيون موقنين بانهم اذا فتحوا دمشق رسخت اقدامهم في سورية ولذلك اغاروا عليها المرّة بعد المرّة فرجعوا عنها مخذولين حتى اذا كان عام ٥٤٣ هـ حاصروها زمناً بقيادة الملك كونراد الالماني ولويس السابع الفرنساوي وبودوين الثالث ملك اورشليم فلم يقدروا عليها لحصانة سورها واستماتة المدافعين وتحمسهم . فنشب القتال بين الفرنجة والمسلمين في سهل المزة وتتابعت الامداد على هؤلاء فكسروا الفرنجة ولحق فلّهم بالساحل بعد ان قطعوا اشجار البساتين للتحصن بها وافسدوها رشقاً بالنشاب وحذفاً بالاحجار واحرقوا الربوة والقبة المهدوية . ولابي الحكم الاندلسي قصيدة وصف بها جيش الفرنجة في مخيّمهِ ومعتركهِ ومجالدهِ ومنهزمهِ وصفاً يقرب من طريقة الافرنج اليوم قال في مطلعها

بشطّيْ نهر داريا امور ما توَّاتينا
واقوام رأوا سفك الـ ـدما في حلّتي دينا
اتانا مائتا الف عديدًا او يزيدونا
فبعضهم من اندلس وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن صور ومن صيدا وتبنينا
اذا ابصرتهم ابصر تَ اقوامًا مجانينا
ولكن حرّقوا في عا جل الحال البساتينا
وجازوا المرّج والتلـ ـديل ايضًا والميادينا
تخالهمُ وقد ركبوا قطائرها حراذينا
وبين خيامهم ضمو ا الخنازيرَ والقرابينا

وما اطمع الفرنجة في افتتاح دمشق الاَّ رخاوة صاحبها مجير الدين محمد بن بوري بن طغتكين فتابعوا الغارة على اعمالهِ واكثروا الفتك برجالهِ حتى جعلوا على اهل دمشق قطيعة كلَّ سنة فكان رسولهم يجيءُ الى المدينة فيجبيها . وفي الروضتين ان نور الدين زنكي لم يسمُ الى اخذ دمشق الا لمعاضدة اهلها للفرنجة واستنصارهم بهم ولما استولى عليها سنة ٥٤٩ ضبط امورها كسائر بلادهِ وحصَّن سورها وقلعتها وبنى بها المدارس والمساجد واصلح طرقها ووسع اسواقها ومنع فيها المغارم والمظالم وعاقب على شرب الخمر ووقف وقوفاً على المرضى ومعلمي الخط والقرآن ومنع من بيع الخمر في جميع بلادهِ ووقف الكتب الكثيرة واطلق المكوس والضرائب الى ما شاكل ذلك من الاسباب التي كانت مبدأ سعد الضحاك وتربعها في ذرى العلياء فغدا الدماشقة على عهدهِ وعهد خلفهِ الملك الناصر من حسن التربية والحمية الحقيقية بمكان . والناس تبع لامامهم في الخير والشرّ

نعم زخرَ عمرانها اذ كان نور الدين وصلاح الدين لا يأخذان المال الاَّ من وجههِ ولا يصرفانهِ الاَّ في سبلهِ كأنهما درسا فن الاقتصاد كاحسن ملك اوربي . قال ابن الاثير طالعتُ سير الملوك المتقدمين فلم أرَ فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز احسن من سيرة نور الدين ولا اكثر تحرياً منهُ للعدل فانهُ كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرَّف الاَّ في الذي يخصهُ من ملك كان لهُ قد اشتراهُ من سهمهِ من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين ولقد شكت اليهِ زوجتهُ من الضائقة فاعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت لهُ يحصل منها في السنة نحو العشرين ديناراً فلما استقلتها قال ليس لي الاَّ هذا وجميع ما بيدي انا فيهِ خازن للمسلمين لا اخونهم فيهِ ولا اخوض نار جهنم لاجلك . هذه كل املاك نور الدين وواردانها وهذا كلامهُ لاقرب الناس اليهِ فنفسهُ مع غيره

اما صلاح الدين فقد اتفق مؤرخو الخافقين على انهُ اكمل الناس رأياً وعقلاً وحسن سياسة وضنَّ الزمان بمثلهِ ملكاً يميل لخير الامة ويرغب عن الزخارف والرخاء التي تقوض اركان الممالك وتدكُّ معالم الامم حتى انهُ لما مات لم يكن في خزانتهِ سوى دريهمات لا تسمن ولا تغني من جوع

ولئن نجم بين اسرة صلاح الدين ومن خلفهم في منصَّة الملك نواجم الشقاق من جرَّاء الاستئثار بالحكم واستبد كل منهم بطرف من المملكة او بلد منها اخذهُ على سبيل الاقطاع وسمى نفسهُ ملكاً فانهم مشوا على قدم نور الدين وصلاح الدين في خدمة البلاد وتخليص السواحل من ايدي الفرنجة . ولم يبرح معنى الوحدة بحالهِ الى ما بعد القرن السابع لأنَّ الحاكم

والمحكوم بقيت فيهما بقية من معرفة واجبهما كما هو الحال عند الغربيين اليوم فكان الحاكم اذا اراد ان يشتطّ في الطلب على الرعايا يوقفونهُ عند حدّ ويخطون لهُ دائرةً لا يتعدّاها ومثل ذلك قل عن المحكوم فقد كان اذا طمح الى ما ليس من شأنهِ يعاملهُ حاكمهُ بالحسنى ويربأ بهِ عن أتيان الباطل بمعنى ان الحاكم لم يكن مستبدًّا بامرهِ يصرّفهُ كما يشاء عليهِ ان يقول وعلى المحكوم ان يفعل منقادًا كالابلهِ ويدعو بملء فيهِ لآمرهِ وناهيهِ مهما بلغ منهُ الشقاء

من اجل ذلك احتفظت دمشق بمركزها وان تكن نزلت بعض درجات عن المكانة التي انتهت اليها في الدولتين النورية والصلاحية . ومما يشعر باستجار العمران ما ورد من ان الملك الظاهر بيبرس صاحب الفتوحات والوقائع مع التتار والافرنج المتوفى سنة ٦٧٦ ملّك من المسلمين دمشق وبعلبك وعجلون وبصرى وصرخد والصلت وحمص وتدمر والرحبة وزليبا وتل باشر وصهيون وبلاطيش ونرزية وحصون الاسماعيلية والشوبك والكرك وشيزر والبيرة وكانت كلها من الحواضر العامرة واليوم اصبح معظمها ضياعًا جراداء مرداء لا كلأ فيها ولا ماء بل مأوى اللصوص يخيفها الخراب

وغير خاف ان العمران في كل الامم والبلاد يكون بحسب الادوار المتقلبة عليها وميل الحكام . تفتر حركتهُ وتسكن نأمتهُ حينًا ثم تتجدّد غضاضتهُ وتعود اليهِ حياتهُ . ذكر المؤرخون ان الملك الاشرف بن قلاوون الصالحي الجالس على تخت الملك سنة تسع وثمانين وستمائة مع ما اشتهر عنهُ من الفتوحات وقلة المظالم والمغارم وميلهِ للشام واهلهِ كان مغرىً بالهدم فهدم اماكن بلا داعٍ وفيهِ يقول علاء الدين الوداعي معتذرًا عنهُ لما امر بهدم الاماكن المجاورة للميدان بدمشق ووزع عمارتهُ على الامراء

إنّ أمرَ السلطان في خلقي بهدم ما جاور ميدانهُ
فانهُ قد غار لمّا رأى غير بيوت الله جيرانهُ

ولعلّ غيرهُ من الملوك حذوا حذوهُ في الهدم فلاهم يريدون ان يروا آثار غيرهم في الوجود ولا هم يستطيعون تقليدها فتأخذهم الغيرة والنُّعرة ويخربون بيوتهم بايديهم

وما وقف شقاء هذه الحاضرة عند جائحة الصليبيين وغزات التتار الاولى وغيرهم من الخوارج واهل الدعارة بل جاءها تيمورلنك سنة ٨٠٣ هـ بخيلهِ ورجلهِ وارسل رسلاً من قبلهِ يصاحبها فقتلهم خلافًا للسنة المتبعة من ان الرسل لا تقتل عادة ولو كان بين المتحاربين حرب البسوس . قال ابن الشحنة حضر قاصد تيمورلنك فقتلهُ نائب دمشق قبل ان يسمع كلامهُ وبئسما فعل

فلما أُهين تيمور بقتل رسلهِ ضيق الخناق على المدينة وهمّ ان لا يجلي عنها حتى يفتحها ويجعل

عاليها سافلها واعزّة اهلها اذلة واذ استلمتهُ طوعًا او كرهًا دخلها جيشهُ وانحى عليها ضربًا وقتلاً وتعذيبًا وسلبًا وسبيًا وحرقًا وتخريبًا . وقد بالغ مؤرخو دمشق وحلب في وصف فعالهِ واشبعوا الكلام على ذلك في رسائل خاصة . ولاشتهار حوادثهِ ببالغ المعرفة اكتفيت بالالماع اليها مع التنبيه الى ان اخبار هذه الوقعة لا تؤخذ الاَّ عن مؤرخ غير متحزب لفئة كابن خلدون واضرابهِ ممن شهدوها اوكانوا احياء فنقلت اليهم وكتبوها بتثبت وتفحص . وليقلع من الاذهان ما يتبجح بهِ بعضهم من انَّ كل خراب في هذه البلاد منشأُهُ تيمورلنك وان كان حدث بعدهُ باعوام عدة

هذا وقد حكم دمشق في هذه المدة دولتان احداهما الدولة التركية بمصر والشام وعدد ملوكها اربعة وعشرون ومدة حكمهم مائة واربع وستون سنة واولهم الملك المعز عز الدين ايبك وآخرهم الملك الصالح حاجي بن اشرف شعبان . واما الدولة الجركسية بمصر والشام فكان ابتداؤها سنة اربع وثمانين وسبعمائة وانقراضها سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة على يد العثمانيين وعددهم ثلاثة وعشرون نفرًا اولهم الملك الظاهر سيف الدين برقوق وآخرهم قانصوه الغوري

وهاتان الدولتان التركية والجركسية وان كانتا دون من تقدمهما في الادارة الاَّ انهما تفضلان كثيرًا من الدول بحسنات ملوكهما وضبطهما البلاد ضبطًا حسنًا . ومن حسناتهما ان اهل الحل والعقد منهما كانوا ينصاعون لنصائح حملة العلم رغبة او رهبة . وكم ذكر التاريخ اخبارًا من تحكُّم العلماء النصحاء على الامراء الاقوياء تحكمًا لا يقبلهُ آحاد الناس من اعاظمهم فضلاً عن ملك من احد المتعلقين بخدمتهِ . وهذا ما دعا لان تكون مصر والشام حافلة بصنوف العلم وحفدتهِ وجرى آل عثمان وخصوصًا محمد الفاتح على مثال مجاوريهِ في تكثير سواد العلماء في بلادهِ

على انهُ حدث في أُخريات الدولة الجركسية ما يحدث للمالك عند انقراضها فيكون سببًا لاعضال داء في احشاء صدرها لا يبرأُ الاَّ بقيام دولة فتية الشباب تخلفها مكانها محمد كرد علي

العمي يبصرون

اذا ذُكرت جريدة اللانست الطبية الانكليزية وأُسند اليها قول قالتهُ او كلام نشرتهُ وعزتهُ الى احد الاطباء المشهورين واستفتحت بهِ جزءًا من اجزائها اصغى اليها القراء عالمين انهم يسمعون كلام ثقة في موضوع هو اعلم بهِ من غيرهِ ولولا ذلك ما تجاسرنا على وضع هذا العنوان لهذه المقالة لئلا يتهمنا القراء بالغلو ان لم يتهمونا بتصديق الخرافات